الدين والسلام. رؤية فلسفية

أ.م.د. جمال الحسيني محمد أبوفرحة

قائم بعمل رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة السويس

الملخص العربي:

لم تعد ثقافة المجتمعات الدينية المغلقة ممكنة في عصر القرية الكونية، ومن ثمة لم يعد أمام العقل خيار في اختيار السلام بين أصحاب الأديان؛ وفي هذه الأيام الأخيرة كثرت الكتابات والنداءات التي تتبنى الوئام الإنساني، لكنها ما زالت تحتاج إلى الإحكام الفلسفي. ومحاولة منا للمساهمة في بناء هذا الإحكام جاءت وريقاتنا هذه تسعى لإلقاء شيء من الضوء على مدى إمكانية التعايش السلمي المثمر بين أصحاب الأديان السماوية الثلاث من خلال نظرة فلسفية كلية للنصوص المقدسة في الأديان الثلاثة لا تغرق بين نصوص مقدسة محددة.

الكلمات المفتاحية: التعايش – التسامح - السلام- قبول الآخر.

Abstract

Religion and Peace: A Philosophical Vision

Closed religious communities' culture is no longer possible in the era of the global village; Hence, the mind no longer has a choice in choosing peace among the followers of religions. Recently, there have been many writings and calls that adopt human harmony, but they still need philosophical depth. and as an attempt by us to contribute to building this depth, our papers came to shed some light on the possibility of peaceful and fruitful coexistence among the followers of the three divine religions

through a holistic philosophical view of the sacred texts of the three religions that does not sink between specific sacred texts.

keywords: coexistence-tolerance-peace- acceptance of the other**.**

مقدمة

لم تعد ثقافة المجتمعات الدينية المغلقة ممكنة في عصر القرية العالمية وقد بات الهمس في مكان يسمع في كل مكان. وهو ما يدعم فكرة أننا "متجهون حتما إما إلى مزيد من الصدام أو مزيد من الوئام"(١).

ومن ثمة لم يعد أمام العقل خيار في اختيار السلام بين أصحاب الأديان؛ ولا نعني بالسلام مجرد كف العدوان، وإنما ما لا ينفك عنه من تعاون وتكامل ووئام.

لقد باءت بالفشل كل محاولات توحيد البشر حول عقيدة دينية واحدة أيا كان نوع العقيدة ونوع المحاولة، ولم يعد مجديا التلويح بأن الحل يكمن في الخروج من كل عقيدة دينية، فحتى هذا الخروج يمثل عقيدة دينية ولا يحل المشكلة(٢).

(١) بيكر: المشترك أكثر مما تعتقد، ص ٤٣.

(٢) فكلمة الدين في اللغة العربية لا تستلزم إيمانا بإله أو التزاما بشريعة إلهية؛ فالدين في لغة العرب: العادة والشأن والحال؛ والسلطان والقهر والعز والمعصية؛ والطاعة والتعبد والورع؛ والخضوع والذل والاستعباد.... انظر: ابن منظور، لسان العرب، حرف الدال، دين.

يقول د. محمد عبد الله دراز: "كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يُعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا، وانقيادا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرا وسلطانً وحكما وإلزاما. وإذا ..... [وصف بها] الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذي يُعبر عنها". دراز: الدين، ص٣٨: ٣٩.

وهنا ينبغي علينا أن نحترم الواقع الذي نعيش فيه، ونقر ونعترف بأنه واقع لا إغلاق فيه ولا إطباق.

وعندما تتولد لدينا هذه القناعة نكون قد قطعنا شوطا لازما إلا أنه غير كاف لتحقيق سلام عالمي وتكامل إنساني؛ فما تزال أطروحات التباعد ومسوغات التنازع تصاغ وتذاع ويروج لها وتزيا بألبسة الدين عازفة على أوتار الطاعة لله وطلب رضاه، والطمع في النعيم، والخوف من الجحيم(٣).

وفي هذه الأيام الأخيرة كثرت الكتابات والنداءات التي تناهض العداء الديني وتتبنى الوئام الإنساني، لكنها ما زالت تحتاج إلى الإحكام الفلسفي. ومحاولة منا للمساهمة في بناء هذا الإحكام جاءت وريقاتنا هذه تسعى لإلقاء شيء من الضياء على مدى إمكانية

وكلمة الدين في القرآن الكريم كذلك لا تستلزم إيمانا بإله أو التزاما بشريعة إلهية يقول تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ". آل عمران ١٩. ويقول: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ". آل عمران: ٨٥. ويقول: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ". الكافرون: ٦. فسمى القرآن الكريم كل معتقد حتى الإلحاد دينا.

ومن ثمة يمكننا القول بأن الدين: هو "جملة المبادئ التي تدين بها .... اعتقادا أو عملا". دراز: السابق، ص٣٩. وانظر: جميل صليبا: المعجم الفلسفي ١/ ٥٧٢. وبعبارة أخرى: "هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظريًا أو عمليًا، فالمذهب العملي لكل امرئ هو عادته وسيرته، .... والمذهب النظري ... هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه". دراز: السابق، ص٣٨. وهو ما يؤكد عليه ابن تيمية بقوله: "فُسِّر الدين بالعادة والخلق، ويفسر الخلق بالدين أيضا". ابن تيمية: قاعدة في المحبة، ص ٩٤. وانظر المباركفوري: تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه.

(٣) يقول الأفغاني: "رجعت لأهل الأرض وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين". خاطرات جمال الدين الحسيني الأفغاني، ص٧٦.

التعايش السلمي المثمر بين أصحاب الأديان السماوية الثلاث من خلال نظرة فلسفية كلية للنصوص المقدسة في الأديان الثلاثة لا تغرق بين نصوص مقدسة محددة.

وتتكون هذه الدراسة من مقدمة وخاتمة وفصلين:

وكان الفصل الأول بعنوان "**أسباب الوئام والصدام الديني**"، ويتكون من مبحثين: الأول بعنوان: "**الأسباب الظاهرة للوئام والصدام الديني**"، والثاني بعنوان "**الأسباب الباطنة للصدام الديني**".

وكان الفصل الثاني بعنوان "**خيارات الدين والسلام**" ويتناول هذا الفصل خمسة خيارات:

الأول: خيار القطيعة مع الآخر انحيازا للدين.

الثاني: خيار القطيعة مع الدين انحيازا للسلام.

الثالث: خيار القطيعة مع الحقيقة انحيازا للدين والسلام.

الرابع: خيار القطيعة مع الدين والآخر انحيازا للمصالح والأهواء.

الخامس: خيار الانحياز إلى ما يدل الدليل على صحته.

الفصل الأول: أسباب الوئام والصدام الديني

المبحث الأول: الأسباب الظاهرة للوئام والصدام الديني:

من خلال استقرائي لأسباب الوئام والصدام الديني أرى أن للوئام والصدام الديني ذريعتين: أولهما: فهوم النصوص الدينية المقدسة؛ وثانيهما: الأطروحات الفلسفية الدينية.

أولا: فهوم النصوص الدينية المقدسة:

حين يستدعي دعاة الصدام نصوصا مقدسة في الأديان السماوية الثلاثة تدعم عداوتهم للآخر نجد أن هذه النصوص عند دعاة السلام محل نظر إما في صحتها أو في معناها، وتتسع دائرة المعنى عند دعاة السلام، وتسقط عصمة فهم النص لتعطي فرصة لتعدد الفهوم وظهور الفهم المسالم(٤).

(٤) فالفهم غير المعصوم لا يمكن أن يعد ممثلا لنص معصوم؛ فلا يحق لأحد أن يقطع بمراد الله في نص مقدس؛ وهو ما يشير إليه النبي في وصاياه لقادة السرايا الحربية بقوله: "إن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله؛ فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا". رواه مسلم برقم٢ من كتاب الجهاد، وأبو داود في الباب ٨٢ من كتاب الجهاد، والترمذي في الباب ٤٧ من كتاب السير، وابن ماجة في الباب ٣٨ من كتاب الجهاد، والدارمي في الباب ٨ من كتاب السير، وأحمد ٥/ ٣٥٨. أي: أنزلهم على فهمك لحكم الله ورسوله الذي لا يحجر على غيره من الفهوم المقبولة لغة وشرعا، وليس المقصود حكمك الذي لا يتقيد بالنص إن وجد نص، وليس لإنسان أن يُلزم من لم يفهم فهمه بفهمه، وإنما يُلزمه بحكمه إن كان قاضيا أو حاكما، وفرق بين الإلزام بالحكم والإلزام بالفهم.

وبناء على ذلك فلا يحق لإنسان أن يصف نصا مقدسا بأنه: "قطعي الدلالة". فإغفال ذكر الفاعل يوحي بأن "الكلام" في حد ذاته هو القاطع بفهم المتكلم، مما يؤدي إلى تحميل النص مسؤولية فهوم خاطئة، وغبن أصحاب الفهوم الأخرى وإيهامهم بأن الحق بين وليس لهم إلا الرضوخ. وحقيقة الأمر أن الذي يقطع بفهم دون آخر إنما هو الإنسان لا الكلام. وهو ما يؤكد عليه ابن تيمية في كتابه: مجموعة الفتاوى ١٩/ ١١٣: ١١٤.

بل نجد عند دعاة السلام في الأديان الثلاثة- نصوصا معارضة وأحيانا بشدة لنصوص الصدام وتسير في الاتجاه الآخر(٥). ومن ثمة أقول: إن النصوص لا تحسم المعركة.

بل ربما تخطى الخلافُ بين الفريقين الحديثَ عن مدى قدسية نصوص بعينها وصحتها ومفهومها إلى حديث عن الديانة نفسها وطبيعتها ومدى قدسيتها عند أصحابها؛ فاليهودية المعاصرة مثلا يمكن أن ننظر إليها كديانة سماوية مقدسة عند أصحابها تثير كثيرا من الإشكاليات حول موقفها من السلام، ثم نقف أمام هذه الإشكالات مواقف متباينة؛ إلا أننا لا نعدم وجهة نظر تعفينا من هذه الوقفة، وتنزع القداسة عنها وترى أن اليهودية المعاصرة ما هي إلا "تراث شعبي قومي لليهود"، أو بعبارة أخرى "تنظيم سياسي لأمة عرقية" ولا علاقة لها بالدين لا من قريب ولا من بعيد، وهو ما ذهب إليه كانط(٦)، ونتفق معه فيه.

(٥) وقد كانت لنا في ذلك وقفات مطولة في عدة دراسات تنطلق من النصوص المقدسة في الأديان الثلاثة منها: الإحسان إلى مخالف الإيمان، التحية والابتسام لمخالف الإيمان، اللين مع مخالف الدين، المحبة لمخالف الملة، التعاطف مع صاحب الاعتقاد المخالف، حق الكافر في الظن العادل، مخالطة الفجار والكفار، أدورة العبادة في شريعة الآخر.

(٦) فالدين عند كانط لابد أن يكون مشتملا على إيمان بإله هو رب الناس أجمعين، وهو منبع ضميرهم الأخلاقي، ومحاسبهم على التزامهم بمبادئ أخلاقية دقيقة في الحياة الآخرة، وهو ما تفتقده اليهودية المعاصرة كلية: فالرب في اليهودية هو رب بني إسرائيل دون غيرهم، وشريعته لهم وحدهم، ولا يهتم بالنوايا الأخلاقية وإنما بالطاعة الظاهرة لأوامره والتي تباين الأخلاق كثيرا وتشذ عنها، وثوابه وعقابه دنيويين.

انظر: Kant, Religion Within The Limits of Reason Alone, pp.116: 118

ثانيا: الأطروحات الفلسفية الدينية:

لما كانت النصوص لا تحسم الخلاف، نجد الفريقين: دعاة السلام، ودعاة الصدام، يعمدون إلى طرح الأطروحات الفلسفية الدينية لدعم مواقفهم. ولا يمكن اعتبار هذه الأطروحات حقائق نهائية غير قابلة للنقاش، فالاختلاف فيها وحولها ظاهرة واضحة في تاريخ الفكر الفلسفي.

فحين يقول أحدهم: إن الله تعالى عندما يطلب منا أن نمارس الإحسان مع الكفار ونعاملهم بالود والبر والقسط وفي ذات الوقت نعتقد أن الله توعد الكفار بالعذاب في الآخرة، فكأننا نقول: إن الله يطلب منا ما لا يفعله هو، وهي قيم مدمرة للبنيان الأخلاقي؛ فمن كان عند الخالق حقيرا مرذولا يجب ألا يكون عند عباده في حال أفضل(٧). قد يبدو للوهلة الأولى لبعض المتلقين لمثل هذه الحجج أنها صحيحة وليس من السهل ردها.. لكن دعاة السلام لهم رأي آخر: فيطرحون علينا نصوصا دينية تقرر أن الدنيا دار ابتلاء، وأن الآخرة هي دار الجزاء، بالإضافة إلى نظرة فلسفية ترى أن الأصل في الأجزية أن تتأخر إلى دار الجزاء، إذ تعجيلها يخل بمعنى الابتلاء(٨). وبناء على ذلك يتوصلون إلى نتيجة هي أنه ليس من حق إنسان أن يجازي إنسانا على علاقته بالله التي لا تعود على مخلوق بنفع

صحيح أنه قد ورد ذكر للبعث والقيامة في العهد القديم في سفر دانيال [١٢: ٢] وسفر إشعياء [٢٦: ١٩] وسفر أيوب [١٩: ٢٥– ٢٧]، وسفر المزامير [١٦: ٩– ١١، ١٧: ١٥، ٤٩: ١٥، ٧٣: ٢٤.....]؛ إلا أن توراة موسى عليه السلام سكتت كلية عن الحديث عن يوم الحساب؛ بل إننا نجد نصوصا تعارض فكرة الحساب والعقاب كما في سفر الجامعة [٩: ٧– ١٠].

(٧) حبش: إخاء الأديان، ص٢٠.

(٨) لمزيد من التوسع حول فكرة أن "الدنيا دار ابتلاء، وأن الآخرة هي دار الجزاء"، انظر: ابن الهمام: فتح القدير ٦/ ٧٢. وابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ط دار الوفاء ١٢/ ٢٦٧.

أو ضر؛ بل يذهب فريق منهم إلى أن رحمته تعالى في الآخرة تسع حتى الكافر غير المعاند وهو من لم تصله الدعوة أو وصلته مشوشة، وترى أن التوعد بالعذاب الأخروي مقتصر فقط على من عرف الحق ولم يتبعه؛ فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها(٩).

وحين تغيب النصوص المقدسة في بيان حكم علاقة ما بين المؤمنين وغيرهم، يعمد دعاة السلام إلى الأخذ بالقاعدة الذهبية للتعايش القائمة على: الاستصحاب، وسد الذرائع، والاستحسان؛ والتي تؤكد عليها الأديان الثلاثة: فالاستصحاب: يتمثل في استصحاب الأخوة الإنسانية التي تجمع كل البشر مهما كانت أوجه اختلافاتهم، وسد الذرائع: يتمثل في عدم عداوتنا للآخر لسد ذريعة عداوته لنا، والاستحسان: يتمثل في استحسان ثمار المسالمة مع الآخر على ثمار العداوة؛ وهي القاعدة التي تعبر عنها اليهودية مرة على لسان الحاخام هلّيل(١٠) في قوله: "ما لا تحب لنفسك لا تصنعه لغيرك، وهذا هو مطلب الشريعة بأسرها وما بقي ليس سوى شرح"(١١). ومرة على لسان طوبيت موصيا طوبيّا في قوله: "كُلُّ مَا تَكْرَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ غَيْرُكَ بِكَ فَإِيَّاكَ أَنْ تَفْعَلَهُ أَنْتَ بِغَيْرِكَ"(١٢). وتعبر عنها المسيحية على لسان المسيح ﷺ في قوله: "كُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ"(١٣). ويعبر عنها الإسلام

(٩) راجع بحثنا "التكفير والمصير". تحت الطبع.

(١٠) وهو من كتبة التلمود.

(١١) بايه: أخلاق الإنجيل، ص١٦١.

(١٢) سفر طوبيا ٤: ١٦.

(١٣) إنجيل متى ٧: ١٢. وانظر لوقا ٦: ٣١. وقوله: "هذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ" أي هذا ما جاءت به الشريعة على لسان الأنبياء.

على لسان نبيه في قوله: "أَحِبَّ لِلنَّاسِ[١٤] مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ"[١٥]. وكلمة "الناس" تتسع لتشمل: المؤمنين وغير المؤمنين.

بينما يلجأ العدائيون حين تغيب النصوص المقدسة في بيان حكم علاقة ما بين المؤمنين وغيرهم إلى البحث عند الآخر عما يفتقدونه من نصوص عدائية وفهوم؛ فإذا وجدوها وقفوا أمامها وأطالوا الوقوف، مشيدين بنظرائهم العدائيين في الأديان الأخرى باعتبارهم صادقين وصريحين ومنسجمين مع عقائدهم، مطالبين بالمعاملة بالمثل، متهمين دعاة السلام بالجبن مرة[١٦]، وبالجهل أخرى، وبالتلون والنفاق ثالثة[١٧]، وبالخيانة العظمى مرات ومرات[١٨].

(١٤) وكلمة الناس تشمل المؤمنين وغير المؤمنين.

(١٥) رواه الترمذي في سننه في باب مَنِ اتَّقَى الْمَحَارِمَ فَهُوَ أَعْبَدُ النَّاس، من كتاب الزهد برقم ٢٢٣٧. وفي هذه العبارة النبوية تبدأ النظرة إلى الآخر أولا ثم ترتد منه إلى الذات، أما التلمود والعهد القديم والعهد الجديد فيبدؤون نظرتهم إلى الذات أولا ثم يرتدون منها للآخر.

(١٦) يقول ابن القيم في وصف دعاة السلام مع الآخر: "ولا يلتفت في ذلك إلى مرجف أو مخذل يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسرى نخاف عليهم". ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص ٤٢٨.

(١٧) يقول د. عبد الرحمن بن ناصر البراك [عالم دين سعودي وعضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقًا]: "إن من المقالات الباطلة التي لا تصدر إلا مِن منافقٍ، أو جاهلٍ مخدوعٍ، ومنشؤها مداهنةُ الكُفَّار والركونُ إليهم، بدعوى مجاملتهم والتَّلَطُّفِ معهم، هذه المقالةَ الباطلةَ: هي أن البغض الذي فرضَه اللهُ على المسلم للكافر إنَّما هو بُغْضُ كُفرِه لا بُغضُ شخصِه. وفي هذا تلبيس، ومغالطة ظاهرة، ومناقضة للعقل والواقع والشرع". مقال للدكتور عبد الرحمن بن ناصر البراك منشور بتاريخ ١٢/ ١١/١٤٣٧هـ.. على الموقع التالي: http://almoslim.net/node/268708

(١٨) يقول الأفغاني: "علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الخلاف وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف رجوعا إلى أصول الدين الحقة فذلك الرجل .... قاطع أرزاق المتجرين

وأخيرا يتم التأكيد على العداوة الدينية للآخر بممارسة بعض أخطاء التفكير:

فاعتقادنا بوجوب الاتصال بين الإيمان والأخلاق يروج له بأنه يعني بالضرورة وجوب الانفصال بين الكفر والأخلاق.

وإذا كنا نعتقد بأن (الكافر ظالم لنفسه بكفره)، فبسهولة يمكن للعقل الجمعي أن يتوهم بقياس الأولى إطلاق الحكم لنصل إلى القول بأن (الكافر ظالم مطلقا: لنفسه ولغيره)؛ ومن ثمة تبرر معاداته!

ثم ينادي أصحاب هذا الفريق بتقديم الروح الكلية للنصوص المقدسة على الفهم الحرفي لنص معين فيها؛ وإذا بهذه الروح هي روحهم هم، ولا تمثل إلا رؤيتهم هم. وروح النص لابد أن يكون هناك دال عليها من النصوص المقدسة نفسها، فالنصوص هي التي تخلق روحها وتدل عليها دلالة مادية واضحة، فروح النص ليست بديلا مستقلا عن النص(١٩).

إن أقصى ما يمكن أن يقبله دعاة العداء الديني في العلاقة مع الآخر هي تلك اللقاءات البروتوكولية التي يعقبها عادة تقديم المبررات والأعذار للأتباع بأنها تأتي في مصلحة الدعوة بتأليف قلوب الناس.

في الدين ... هو في عرفهم: الكافر، الجاحد، المارق ....، المهرطق، المفرق الخ". الأفغاني: خاطرات جمال الدين الحسيني الأفغاني، ص٧٦.

(١٩) انظر: إيجلتون: الإرهاب المقدس، ص٥٠.

إن كل ما سبق يضعنا أمام حقيقة أن الاختيار بين العداء والمسالمة لا يعود لنصوص دينية مجمع على صحتها وعلى فهمها، أو أطروحات فلسفية دينية بدهية وإنما يعود لأسباب أخرى باطنة تتزيا بالدين.

المبحث الثاني: الأسباب الباطنة للصدام الديني(٢٠):

إن الانتماء الديني هو انتماء حاضر ملازم لكل جماعة؛ ومن هنا يسهل استدعاؤه في كل صراع. وفي ذات الوقت فإن الدين هو المحرك الأكبر للتعبئة ضد الآخر(٢١)، ومن هنا يحلو استغلاله ليكون نائبا عن الأسباب الحقيقية للصراع بين أي جماعتين؛ هذا فضلا عن أن إفراد الدين بالذكر كسبب وحيد لمعاداة غير المؤمنين مغر ببساطته، إلا أن ضرره أكثر من نفعه؛ فالخطأ في التشخيص خطأ في العلاج.

(٢٠) اقتصر حديثي هنا عن الصدام الديني لأن الوئام من وجهة نظري أسبابه ظاهرة فقط وليس له أسباب باطنة.

(٢١) يقول ابن خلدون عن العرب –وحديثه أراه منطبقا على غيرهم كذلك بدرجات مختلفة من الانطباق–: "إذا كان الدّين بالنّبوءة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خُلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدّين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التّحاسد والتّنافس، فإذا كان فيهم النّبيّ أو الوليّ الّذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلّف كلمتهم لإظهار الحقّ تمّ اجتماعهم وحصل لهم التّغلّب". ابن خلدون: المقدمة، ص ١٥١، فصل بعنوان "في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة".

إن التطرف الديني ليس بمعزل عن الوهن الثقافي[٢٢]، والخداع السياسي[٢٣]، والصراع الاقتصادي[٢٤]، والأحقاد العرقية[٢٥]، والأنانية[٢٦]، والعنصرية القومية[٢٧]، والوطنية

(٢٢) فكثير من مظاهر التعصب والعداء الديني مردها إلى الانحسار الثقافي والجهل بما عند الآخر ومعاداة الإنسان لما يجهل طبيعة فيه.

(٢٣) لقد أدرك كثير من السياسيين أن مشاعر الكراهية والعداوة تحجب الشعور بالتعب البدني؛ ومن ثمة تزداد عدد ساعات عمل الحاقدين مما يدعم الاقتصاد؛ ومن ثمة يتحقق الاستقرار السياسي؛ فصنعوا الشياطين وباعوها لأممهم. انظر: موللر: تعايش الثقافات، ص٩٩. وانظر: هنتنجتون: صراع الحضارات، ص٢١١. أضف إلى ذلك أن من وسائل السيطرة السياسية وجود شيطان سياسي يُحمَّل عبء إخفاق الزعماء؛ حتى إذا لم يجد الحديث عن الولاء السياسي مبررا لوجوده من عمل مخلص جاد ينهض بالأمة كان العداء لهذا الشيطان – حقيقيا كان أو مصنوعا– مبررا للولاء للزعيم (الملاك) المناضل ضد الشيطان، فتتلهى الشعوب بهذه الصورة الزائفة عن طموحها في تخفيف آلامها وتحقيق آمالها. انظر: الغزالي: إحياء علوم الدين، ١/ ٤١، ط دار الفكر العربي. موللر: السابق، ص ٩٦.

(٢٤) يقول ريجيس دوبريه Régis Debray في وصف الحملات العسكرية التي شنها الرجل الأبيض على الهنود الحمر في القارة الأمريكية والتي كانت مصحوبة بحملات تبشيرية: "ذهبك في مقابل إلهي، أعطني الدراهم وإليك المطلق، إنني أنهب، ولكنني في الوقت نفسه أهدي للحق". ريان: جدل الواقع العربي والصراع على الذات، ص ١٢١. . فهنا نجد أن الطمع في الذهب والدراهم هو الغاية التي أعاقت التعايش السلمي بينما كانت الوسيلة لتحقيق تلك الغاية هي الحرب ذات الشعارات الدينية. أضف إلى ذلك أن الفئات المتغلبة اقتصاديا –للحفاظ على مكاسبها– كثيرا ما تمارس سياسات اقتصادية إقصائية للمنافس الاقتصادي، تحت شعارات مختلفة مفادها: أن المنافس غير مستحق للمشاركة الاقتصادية العادلة، ثم تُوصل هذه المزاعم؛ والتأصيل الديني بالطبع لا يغيب عن مشهد كهذا.

(٢٥) إن استقراء الماضي والحاضر يمدنا بما لا حصر له من الأمثلة للعداوات ذات البواعث العرقية؛ وقد كانت أول معصية لله تعالى تذكرها الكتب المقدسة لكثير من الأديان بدافع الاستعلاء العرقي وهي معصية إبليس في رفضه السجود لآدم.

(٢٦) إن استقراء الماضي والحاضر يمدنا بما لا حصر له من الأمثلة للعداوات ذات البواعث النفسية؛ وقد كانت المعصية الأولى لله تعالى على الأرض بحسب الكتب المقدسة لكثير من الأديان بدافع الغيرة، وهي قتل قابيل لهابيل.

المتطرفة[٢٨]، والحيل النفسية[٢٩]. حتى إنه ليمكننا القول بأن مزاج وطبع الإله في أغلب الأحوال هو انعكاس مباشر لمزاج وطبع عابديه، والذي تشكله: طباع موروثة، وأحوال معاشة؛ وبعبارة أخرى، أقول: إن مزاج وطبع الإنسان هو الذي يصنع الدين المتطرف وليس

(٢٧) يقول ديبون على لسان أحد شخوص روايته البحيرة الميتة: "إن لم نكره ما ليس نحن، فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن". هنتنجتون: السابق، ص ٣٦. ويقول هنتنجتون: "بالنسبة للشعوب الباحثة عن هوية..... فإن العدو ضروري". السابق: ص ٣٧. . ويعلل ذلك بقوله: "نحن لا نعرف من نكون إلا عندما نعرف (من ليس نحن)، وذلك يتم غالبا عندما نعرف (نحن ضد من)". السابق، ص ٣٩. ويقول كارلسون: "لقد أصبح استمرار فكرة [الخطر الخارجي الشامل] .... عنصرا لازما لتقوية الهوية الأوربية التي يعتريها الوهن والضعف". إنجمار كارلسون: الإسلام وأوربا: تعايش أم مجابهة، ص ٢٩. وانظر د. صلاح قنصوة: مقدمة ترجمة كتاب هنتنجتون "صراع الحضارات". ص ٢٧.

(٢٨) يقول كانت: "إن حالة السلام بين أناس يعيشون جنبا إلى جنب ليست حالة فطرية: إذ إن الحالة الفطرية أدنى إلى أن تكون حالة حرب، وهي وإن لم تكن دائما حربا معلنة، إلا أنها على الأقل منطوية على تهديد دائم بالعدوان". كانط، مشروع للسلام الدائم، ص٣٩. ومن ثمة تنتشر الجيوش في مقابل بعضها البعض على حدود الأوطان، وهو ما يعكس شعورا بالتهديد من الآخر أو رغبة في تهديده! وهذه الحالة الطبعية تميل إلى أن تتخذ الدين لها زيا، يقويها ويغذيها.

(٢٩) كالإزاحة: فالعامة والغوغاء في حاجة إلى إخراج مشاعرهم السلبية المكبوتة؛ وعند العجز عن إخراجها على من يستحق إلقاءها عليه، وترسخ الجبن والجهل، وغياب الحكمة والعدل، يتم إلقاؤها على من يمكن إلقاؤها عليه؛ فيصبح معيار العداء هو الإمكان لا الاستحقاق. وتعد نصوص الدين وتفسيراتها العدائية ملجأ مهما لتحقيق ذلك.

العكس[٣٠]. يقول أكسانوفان[٣١]: "إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضافوا إليهم عواطفهم وصورتهم وهيئتهم، فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف، ويقول

(٣٠) فعندما كان مزاج وطبع كانط مؤثرا للأخلاق، أصر على رؤية إلهه على شاكلته، فدعا إلى تأويل النصوص الدينية واستنطاقها على نحو يجعلها متفقة مع الأخلاق حتى وإن كان التفسير متكلفا، وكأن المراد هو تلوين النص لا تأويله؛ ولم يستند كانط في ذلك إلى سند عقلي كما هي عادته، ولكنه لجأ لما أسماه بالحجة التاريخية فذكر أن الأمر قد تم على هذا النحو في كل الأزمنة مع مختلف أنواع الاعتقاد.

انظر: Kant, Religion Within The Limits of Reason Alone, p.100: 102

ومن الواضح أن كانط هنا لا يدعو إلى التفسير المتكلف للنصوص فقط، ولكنه يدعو كذلك إلى الاستدلال المتكلف على منهجه هذا؛ فأفعال السلف ليست حجة على الخلف، والعقل لا يعرف شيئا عما يُسمى بـ "الحجة التاريخية" بهذا المعنى.

وعندما كان مزاج وطبع نفر من علماء الإسلام مؤثرا للعداء مع الآخر وهو ما لا تشفع له النصوص عندما ينظر إليها من خلال الأصول والقواعد التي تواضعوا عليها للاطمئنان على صحة النص وضمان فهمه بطريقة سليمة، أغفلوا هذه الأصول والقواعد عند حديثهم عن العلاقة مع غير المسلمين، وهو ما يدعم دعوانا بأن للمسألة جوانب أخرى لا علاقة لها بالدين وإن تزيت به. ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك ما يسمى بـ "الشروط العمرية"، وهي شروط شرطها نصارى الشام على أنفسهم لعبد الرحمن بن غُنم عامل عمر بن الخطاب ﷺ على الشام، ولا علاقة لها بنصوص الإسلام لا من قريب ولا من بعيد؛ فهذه الشروط العمرية، بحسب روايتها وضعها النصارى ولم يضعها عمر، ولا نص فيها عن الله ورسوله ﷺ، بل تعارضها النصوص الإسلامية والأصول والقواعد الفقهية، وبالإضافة إلى ذلك لم تحظ هذه النصوص بالتوثيق الذي حظيت به نصوص القرآن والسنة؛ بل إن عمر بن الخطاب نفسه عندما صالح أهل إيلياء وأعطاهم العهدة العمرية، كانت بريئة من شطط ومظالم هذه الشروط المزعومة التي يتبرأ منها الإسلام في تعامله مع غير المسلمين. [انظر فيما يتعلق بهذه الشروط: ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ذكر الشروط العمرية وأحكامها وموجباتها، ص ٤١٥]. وإن صحت موافقة عمر عليها فهو مجتهد في ضوء ظروف عصره، واجتهاده ﷺ ليس شرعا ملزما إلى قيام الساعة.. ورغم كل ما سبق ذكره أصبحت هذه الشروط عند ابن القيم وعدد من فقهاء المسلمين تمثل شريعة دينية تحكم تعامل المسلمين مع أهل الكتاب. يقول ابن القيم في ذلك: "لو وقع الصلح مطلقا من غير شرط، حمل على ما وقع عليه صلح عمر، وأخذوا

أهل تراقية إن آلهتهم زرق العيون حمر الشعور....." [٣٢]. ولا يشذ عن تلكم الحالة إلا الدين الحق الذي لا يساير الواقع المرذول للإنسان وإنما يرسم صورة مثلى للإله ويدعو الناس للرقي إليها والتشبه بها؛ وهو ما يتمثل في قوله تعالى: "كُونُوا رَبَّانِيِّينَ"[٣٣].

الفصل الثاني: "خيارات الدين والسلام [٣٤]"

بناء على ذرائع الوئام والصدام الظاهرة والباطنة انقسم المفكرون إلى عدة أقسام تستوفى جميع وجوه القسمة العقلية لخيارات الدين والسلام وهي: اختيار الدين، أو اختيار السلام، أو اختيارهما معا، أو رفضهما معا، أو اختيار ما يدل الدليل على صحته.

الخيار الأول: خيار القطيعة مع الآخر انحيازا للدين: ومنطلق أصحاب هذا الخيار هو أن الدين يدعو للصدام ويعارض السلام. وهو خيار المتدينين العدائيين[٣٥]، وهؤلاء

بشروطه؛ لأنها صارت كالشرع، فيحمل مطلق صلح الأئمة بعده عليها". [السابق، ص٤٣١]. فابن القيم يجعل هذه الشروط كالشرع ملزمة، ويحمل مطلق الصلح عليها، رغم أنه هو نفسه يعترف بعدم صحة سندها عندما يقول: "وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها: فإن الأئمة تلقوها بالقبول، وذكروها في كتبهم، واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم، وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها". [السابق، ص ٤١٧]. والمبدأ المتضمن في قول ابن القيم: "شهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها" لا يقول به هو نفسه أو غيره من الفقهاء في غير هذا الباب (أحكام أهل الذمة)؛ فكم من نصوص موضوعة مشهورة على ألسنة غير المعصومين؟! وقد تصدى علماء الحديث والتاريخ لذلك بما هو لائق.

(٣١) فيلسوف يوناني قديم (٥٧٠-٤٨٠ ق.م).

(٣٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٢٨.

(٣٣) آل عمران:٧٩. قال القرطبي "وكأنه يقتدي بالرب سبحانه". الجامع لأحكام القرآن تفسير الآية ٧٩ من سورة آل عمران.

(٣٤) في تصور عامة فلاسفة الغرب يعد الدين جزءا من المشكلة لا جزءا من الحل.

(٣٥) يمثلهم في الإسلام قديما الخوارج، وحديثا الدواعش، ويمثلهم في المسيحية أصحاب الحروب الصليبية ١٠٩٦- ١٢٧٢م، ومحاكم التفتيش ١٢٠٠- ١٨٠٠م، وحروب فرنسا الدينية

يخسرون بقطيعتهم مع الآخر فرص التكامل معه، وإن استخدموا القوة لفرض رؤيتهم أفسدوا الواقع بصراع لا يعرف منتصرا ولا منهزما.

الخيار الثاني: خيار القطيعة مع الدين انحيازا للسلام: وبعض أصحاب هذا الخيار ينادي بالقطيعة الكاملة مع الدين كالملاحدة، وبعضهم ينادي بالقطيعة الجزئية كالعلمانيين. وينطلق أصحاب هذا الخيار كذلك من الاعتقاد بأن الدين يدعو للصدام ويعارض السلام. وهؤلاء تنقصهم الرؤية الصحيحة للواقع؛ فرفض الدين دين، والدوغمائية والتطرف سمتان تلاحقان كل دين حتى العلمانية. هذا فضلاعن أنه لم تنجح أي محاولة لجمع الناس على دين، وما قد يحققه هؤلاء من نجاح، سريعا ما تذروه الرياح؛ فالجماهير غير المتدينة ترتد في لحظة المواجهة مع الآخر الديني إلى ما بحوزتها من نصوص مقدسة وتفسير رجال الدين لها، وكثير من رجال الدين في عامة الأديان لا ينظرون بودية لثقافة السلام؛ فهي تحد من سيطرتهم وتقلص مصالحهم(٣٦). فإن استخدم دعاة القطيعة مع الدين القوة لفرض رؤيتهم تحولوا إلى القسم الذي يرفض كلا من الدين والسلام.

١٥٦٢– ١٥٩٨م، والمسيحيون الصهاينة، ويمثلهم في اليهودية قديما أصحاب مدرسة شماي وحديثا الصهاينة ودعاة قيام دولة إسرائيل وتوسعها.

(٣٦) يقول الأفغاني: "علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة، وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة حانوت، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات: الدينية، والمذهبية، والطائفية، على حد قول الشاعر:

قد يفتح المرء حانوتا لمتجره *** وقد فتحتَ لك الحانوت في الدين

صيّرت دينك شاهينا تصيد به *** وليس تفلح أصحاب الشواهين"

الأفغاني: خاطرات جمال الدين الحسيني الأفغاني، ص٧٦. ويؤكد الأفغاني على ذلك بقوله: "اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها، ولا أثر له في كتبها، وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين ويشترون بآياته ثمنا قليلا ساء ما يفعلون". السابق، ص ١٧٩.

الخيار الثالث: خيار القطيعة مع الحقيقة انحيازا للدين والسلام: وأصحاب هذا الخيار كأصحاب الخيارين السابقين يرون أن الدين يدعوا إلى الصدام، لكنهم رأوا أن امتطاء الدين، وامتطاء المتدينين لتحقيق السلام أسهل من مواجهتهما. وهو المنهج الذي يعبر عنه كانط بقوله: "رغم أن ... التأويل يمكن أن يبدو مقحما أو متكلفا إزاء نص الوحي وكأنه مبالغ فيه، وقد يكون غالبا متكلفا فعلا، فإنه يكفي أن يستطيع ... النص تحمله حتى نفضله على أي تفسير حرفي خال من أية فائدة خلقية أو مضاد لدوافعها"(٣٧). ويشايعه وصف مدخل العهد الجديد من الترجمة الفرنسية المسكونية للأناجيل بأنها كلام "يتكيف مع مختلف البيئات ويلبى حاجات الكنائس ... ويعبر عن التفكير في الكتاب المقدس ويصوّب الأخطاء، ويرد عند الحاجة على حجج الخصوم(٣٨). وهو المنهج الذي يؤكد عليه المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني في دستوره "الوحي الإلهي" قائلا: "بما أن الله قد تكلم في الكتاب المقدس بلسان البشر وعلى طرائق البشر فإذا شاء مفسر الكتاب المقدس أن يدرك إدراكا كاملا حقيقة ما قصد الله مما أبلغنا إياه توجب عليه أن ... يبحث عن المعنى الذي قصده كاتب الوحي، ويرى كيف عبر عنه في أجواء خاصة، وفى بيئة لازمة، وفى أوضاع ثقافية راهنة، معتمدًا أنماطًا أدبية شائعة في زمانه"(٣٩). وانطلاقا من هذا المنهج كثيرا ما تطلق الدعوات إلى اعتقاد صواب المتناقضات بإذابة الفوارق بين

(٣٧) Kant, Religion Within The Limits Of Reason Alone, p.101
وهو المنهج الذي سار عليه هيجل وعلى أساسه كتب كتابه "حياة يسوع".

(٣٨) مدخل العهد الجديد، طبعة دار المشرق، ص ٢٥.
وبهذا المنهج "جمع الإنجيليون ودونوا وفقا لنظراتهم الخاصة ما أتاهم من التقاليد الشفهية" السابق، ص٢٦.

(٣٩) الفاتيكان: المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني، "الوحي الإلهي"، الفصل الثالث البند ١٢، ص١٣٠.

الأديان واستنكار تكفير أصحاب دين لغيرهم. وهو ما يعني في التحليل الأخير الدعوة إلى إذابة الدين أو تبخيره.

الخيار الرابع: خيار القطيعة مع الدين والآخر انحيازا للمصالح والأهواء: وهي دعوة بدأها إبليس، ثم قابيل، واستمرت إلى يوم الناس هذا وإن تزيت كثيرا بزي الدين كما سبق بيانه عند حديثنا عن الأسباب الباطنة للصدام الديني.

الخيار الخامس: خيار الانحياز إلى ما يدل الدليل على صحته: وأصحاب هذا الخيار يعلون من شأن الحقيقة، ويعترضون على منهج دعاة التأويل الديني المتعسف؛ لما في منهجهم من خيانة للنص المقدس وللقارئ! ويؤكدون على أنه لا يحق لأحد أن ينصب نفسه وصيا على البشرية، فيفكر نيابة عن الناس ويجردهم من مسؤولياتهم، ويستبيح التلاعب بهم بدعوى البحث عن مصلحتهم. وهو ما يؤكد عليه بولس في قوله: "إِنْ كَانَ إِثْمُنَا يُبَيِّنُ بِرَّ اللهِ، فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَلَعَلَّ اللهَ الَّذِي يَجْلِبُ الْغَضَبَ ظَالِمٌ؟ أَتَكَلَّمُ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ* حَاشَا! فَكَيْفَ يَدِينُ اللهُ الْعَالَمَ إِذْ ذَاكَ؟* فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صِدْقُ اللهِ قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ؟* أَمَا كَمَا يُفْتَرَى عَلَيْنَا، وَكَمَا يَزْعُمُ قَوْمٌ أَنَّنَا نَقُولُ: «لِنَفْعَلِ السَّيِّآتِ لِكَيْ تَأْتِيَ الْخَيْرَاتُ»؟ الَّذِينَ دَيْنُونَتُهُمْ عَادِلَةٌ"(٤٠).

ويرى أصحاب هذا الخيار أننا لسنا بحاجة إلى الكذب في محاولتنا لبناء سلام عالمي قائم على النصوص المقدسة وفهمها بين أصحاب الأديان السماوية الثلاثة على الأقل، وإنما تكمن حاجتنا لبناء هذا السلام في معرفتنا بأمرين:

(٤٠) رومية ٣ :٥- ٨.

الأمر الأول: معرفتنا بطبيعتنا الإنسانية، وعلاقة الطبيعة الإنسانية بخيارات السلام. وقد سبق الحديث عن ذلك عند حديثنا عن "الأسباب الباطنة للصدام الديني".

الأمر الثاني: معرفتنا بطبيعة النصوص المقدسة، وطبيعة تفسيراتها:

فالكتاب المقدس ما هو إلا كتابة من وجهة نظر: فساق وأتقياء، علماء وجهال، حكماء وبسطاء، أمميين ويهود، أغنياء وفقراء، وُدَعاء وعنف، صابرين ومتمردين، ...الخ؛ ومن ثمة كانت الأخلاق الكتابية متباينة، وهي الحقيقة التي يعبر عنها الكتاب المقدس(٤١) ويقر بها كتبته أنفسهم ويعلنونها في مواضع عديدة من الكتاب المقدس(٤٢)؛ فالتعارض بين أخلاق الكتب المقدسة سواء اليهودية أو المسيحية هو الانعكاس الأمين لتعارض ماثل عند كتبتها عبر القرون، وهو أمر له جاذبيته من وجهة نظر أخرى؛ فبه يمكن استرضاء الجميع بانتقاء ما يحلو من نصوص وغض النظر عن أخرى؛ يقول ألبير بايه: "لئن زعم بروتستانتيون وكاثوليك، محافظون وثوريون، رأسماليون واشتراكيون –زعموا جميعا– أن

(٤١) يقول الكتاب المقدس على لسان الرب: "مَاذَا يَصْنَعُهُ بِي الْبَشَرُ؟ الْيَوْمَ كُلَّهُ يُحَرِّفُونَ كَلاَمِي عَلَيَّ كُلُّ أَفْكَارِهِمْ بِالشَّرِّ". المزمور ٥٦: ٤– ٥. ويقول: "أَمَّا وَحْيُ الرَّبِّ فَلاَ تَذْكُرُوهُ بَعْدُ، لأَنَّ كَلِمَةَ كُلِّ إِنْسَانٍ تَكُونُ وَحْيَهُ، إِذْ قَدْ حَرَّفْتُمْ كَلاَمَ الإِلهِ الْحَيِّ رَبِّ الْجُنُودِ إِلهِنَا". سفر إرمياء ٢٣: ٣٦.

(٤٢) يقول بولس الرسول معبرا عن هذا المعنى: "كُنْتُ مُحْتَرِصًا أَنْ أُبَشِّرَ هكَذَا: لَيْسَ حَيْثُ سُمِّيَ الْمَسِيحُ، لِئَلاَّ أَبْنِيَ عَلَى أَسَاسٍ لآخَرَ". رسالة بولس الرسول لأهل رومية ١٥: ٢٠. و"من المؤكد أنه لو كان جميع الحواريين قد اتبع نفس الطريق فى الدعوة وأقاموا جميعا دين المسيح على نفس الأساس لما استطاع بولس على أي نحو أن يصف الأساس الذي يرتكز عليه حواري آخر بأنه: (أساس غيره) لأن جميع الحواريين يكون لديهم عندئذ نفس الأساس". سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص٣٣٤. ويعاود بولس التأكيد بأساليب مختلفة على أنه إنما يعبر عن رأيه فيما يكتبه من نصوص مقدسة فيقول مرة: "فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا، لاَ الرَّبُّ". رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٧: ١٢. ويقول أخرى: "... بِحَسَبِ رَأْيِي....". السابق ٧: ٤٠.

الأخلاق التي يدعون إليها مستمدة من هذه الكتب الشهيرة؛ فذلك أن نصوصا دقيقة تتيح لهم كلهم ذلك الادعاء، ولأن مذاهبهم مهما بلغ تنوعها ماثلة كلها سلفا في الإنجيل"(٤٣). وعليه فمن غير المتوقع النجاح دائما في الجمع بين النصوص الأخلاقية اليهودية أو المسيحية لصالح أي من الرؤيتين تجاه مخالف الإيمان: الرؤية المثالية أو الرؤية العدوانية، وكأننا أمام وحيين يهوديين متقابلين، ووحيين مسيحيين متقابلين، لإلهين مختلفين: أحدهما إله للمثالية الأخلاقية، والآخر للعدوانية!

والحال في الإسلام يختلف في أساسه ولا يختلف في مآله؛ فالنصوص الإسلامية المقدسة ليس لها كتبة متفرقون عبر زمان طويل ومكان فسيح(٤٤) كما هو حال اليهودية والمسيحية(٤٥)، ولا تنسب النصوص الإسلامية لرواتها دون سند يربط بين مصدر النص وراويه كما هو الحال في اليهودية والمسيحية(٤٦)؛ وهنا يمكننا القول بأنه قد عصمت النصوص الإسلامية من دعوى الوحيين علوم عدة، فعلم الرجال وعلم الإسناد عصما المتن،

(٤٣) بايه: أخلاق الإنجيل، ص ١٨٩.

(٤٤) فقد حفظ القرآن في الصدور وفي السطور فور نزوله على النبي ﷺ وجمع في المصحف جمعا عاما مشهودا في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ، وكذلك السنة النبوية حفظت وكتبت في عهد النبي ﷺ وجمعت في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ في نهاية القرن الهجري الأول. وقد فصلنا القول في ذلك في كتابنا: النبي الخاتم، ص ص٢٢١: ٢٣٤.

(٤٥) يقول مدخل الكتاب المقدس في الترجمة الفرنسية المسكونية: "ما ... الكتاب المقدس؟ تكفي نظرة تُلقيها على الفهرس لنرى أنه مكتبة؛ بل مجموعة كتب مختلفة جدا، وإن رجعنا إلى مداخل هذه الكتب تأكّد هذا الانطباع، ذلك أنها تمتد على أكثر من عشرة قرون، وتنسب إلى عشرات المؤلفين المختلفين. بعضها وُضع بالعبرية مع بعض المقاطع الآرامية، وبعضها الآخر باليونانية...". ص٢٩.

(٤٦) وقد فصلنا القول في ذلك في كتابنا: النبي الخاتم، ص ص١٩١: ٢٣٤.

وعلم الأصول[٤٧] عصم الفهم[٤٨]. لكنها عصمة تسمح بتعدد الفهوم، وكثيرا ما تسمح بتواجد الفهمين: المتعايش وغير المتعايش معا، ولم يحدث الإجماع على فهم واحد[٤٩]، ومن غير المتوقع أن يحدث[٥٠]. فحتى أصول الفقه لم يُجمع عليها، بل لم يجمع العلماء على حجية الإجماع[٥١].

(٤٧) أقصد علم أصول الفقه بمعناه الواسع والذي يجعل الفقه مرادفا للفهم.

(٤٨) بينما حذر المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني من إعطاء أية قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة فى التوراة بدعوى أن الكنيسة لا تستطيع أن تتخذ قرارا بصحة أو زيف المناهج العلمية بحيث تستطيع أن تحل مبدئيا وبشكل عام مشكلة حقيقة الكتاب المقدس.

انظر: Bucaille, Maurice, La Bible Le Coran et la science, p.50

(٤٩) راجع على سبيل المثال دراستنا المعنونة بـ "المحبة لمخالف الملة: قراءة في الكتب المقدسة".

(٥٠) ومن ثمة يحتاج الدارس لموضوعات الإخاء الديني للوقوف طويلا أمام النصوص الإسلامية لمعالجة التعارض الظاهري بين بعض النصوص. وفي ذات الوقت يحبذ له أن يستفيض في الحديث عن النصوص اليهودية والمسيحية المعبرة عن المثالية الأخلاقية وتكفيه الإشارة إلى وجود نصوص أخرى تجسد العدوانية واللا أخلاقية دون استفاضة في عرضها داعيا القارئ إلى الاختيار بين هذه وتلك. ومن ثمة يبدو الأمر في كثير من الأحيان وكأن الأخلاق المثالية في النصوص اليهودية والمسيحية لا يعكر صفوها الكثير من النصوص المعارضة بينما الوضع في الإسلام فيحتاج إلى جهد في التأويل حتى تنسجم النصوص لصالح الأخلاق المثالية، والأمر كما ذكرنا!

(٥١) لمزيد من التفصيلات حول الإجماع وحجيته راجع: ابن النجار: شرح الكوكب المنير، ص٢٠١: ٢٢٠. الغزالي: المستصفى من علم الأصول، ١/٢٤٤: ٢٨٢، الجويني: شرح نظم الورقات، ص١٦٠: ١٦٥، علي جمعة: المدخل، ص١٢٠: ١٢١، العثيمين: الأصول من علم الأصول، ص ٦٤: ٦٧. ابن تيمية: معارج الوصول ٣٨: ٤٥.

إن كل ما سبق ليوقفنا أمام الحقيقة التالية: إن الباحثين عن مسوِّغات السلام في الأديان السماوية الثلاث، سيجدون نصوصا دينية وفهوما فقهية كثيرة تؤيِّد هذا التوجه، وكذا الباحثون عن مسوغات الصراع فسيجدون كذلك ضالتهم؛ إنه خيارنا: إما أن نعيش معا كأخوة أو نموت معا كأغبياء!

وختاما أقول:

- إن الحرب فكرة تنشأ في العقل قبل أن تبرز إلى الوجود، فوأدها أسهل وأنجع من مواجهتها؛ إلا أن دول العالم لم تفعل شيئا ذا بال لوأد الحروب في مهدها بتعزيز ثقافة السلام؛ واختارت الطريق الأصعب والأكثر كلفة فلم تدخر جهدا ولا مالا لتأمين سلامتها بالقوة، والتأهب المادي للحروب المحتملة؛ حتى وإن كان ذلك على حساب سلامة غيرها!.

- رغم أن دعاة العداء في العالم قليلون، إلا أنهم مؤثرون بفضل الغالبية الصامتة! فلا يجدر بنا أن نشكو من هؤلاء القلة، بل علينا أن نخجل من صمتنا الذي يفسح لهم المجال لتوسيع دائرة العداء وتعميقها. فالصمت هو العدو الأكبر للسلام، والعون الصارخ للعداء. لقد آن الأوان لنغادر الأكثرية الصامتة والجماعات الخاملة، وألا ننتظر أن يتحرك غيرنا. فإن لم تقم النخبة بواجبها تجاه تعزيز ثقافة السلام فمن يقوم به؟(٥٢).

- إن الدعوة إلى السلام العالمي بين أصحاب الأديان لا يصح استثناء طرف منها؛ ليُدعى أعداؤه وحدهم إلى مسالمته ليستمر هو في غيّه دون مانع أو

(٥٢) "لو تكاتف الناس حول معنى الإنسانية لانتهى الشر من العالم". كونفشيوس: المحاورات، ٤-٤.

كابح. فالسلام الحقيقي يقوم على العدل، ويحيى بالحرية، ويزدهر بالحوار، وتترسخ جذوره بالإحسان. وهنا لابد من التمييز بين فقهين: فقه تدين الأفراد المبني على تقديم المسامحة على العدل إلا إن دعت الضرورة إلى غير ذلك، وفقه تدين الأمم المبني على تقديم العدل والزجر والقصاص على المسامحة إلا إن دعت الضرورة إلى غير ذلك(٥٣).

- إن الدين الصحيح هو الدين الكامل، والدين الكامل معبوده كامل، وكمال المعبود يقتضي سعي العابد للكمال، والساعي للكمال يسعى لحمل الجنة في قلبه قبل أن تحمل الجنة قدمه، ومن يحمل الجنة في قلبه يفيض قلبه بالحب لكل موجود، ومن يفيض قلبه بالحب لا يبقى في قلبه متسع لكره أو لحقد؛ فغاية التدين هي السيطرة على النفس لا على الآخرين.

- وأختم مؤكدا على أن الحوار بين أصحاب الأديان من الطبعي أن يستثير جراحا قديمة يمكن تجاوزها: بقدر ما تتوفر الشجاعة عند مقترفيها للاعتذار عنها، وبقدر ما تتأكد العزيمة عند ضحاياها للتسامي أمامها!

(٥٣) فالغفران السهل قد تنشأ عنه أضرار أخلاقية على الفرد وعلى المجتمع.

أهم المصادر والمراجع(٥٤)

➢ **كتب السنة النبوية وشروحها:**

- **الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة):**

- سنن الترمذي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط٢، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٨م.

- **ابن حنبل (أحمد):**

- مسند أحمد بن حنبل، د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت.

- **الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن):**

- سنن الدارمي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني، د.ط، باكستان: ط حديث أكاديمي، ١٩٨٤م.

- **أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني):**

- سنن أبي داود، تعليق أحمد سعد علي، ط١، القاهرة: ط مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢م.

- **ابن ماجه (أبو عبد الله بن يزيد القزويني):**

- سنن ابن ماجه، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، القاهرة: ط عيسى البابي الحلبي، د.ت.

- **مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري):**

(٥٤) نظمت المصادر والمراجع فيما يلي حسب الترتيب الألفبائي للاسم الذي اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن (ابن، أبو، ال). وقد استخدمت الرموز التالية للدلالة على غير الموجود من بيانات النشر: د.ط= بدون طبعة. د.م= بدون مكان نشر. د.ن= بدون ناشر. د.ت= بدون تاريخ نشر.

- صحيح مسلم بشرح النووي، د.ط، القاهرة: ط مصطفى البابي الحلبي، د.ت.

➢ **الكتابات المقدسة في اليهودية والمسيحية:**

- **الكتاب المقدس:**
- الكتاب المقدس، اعتماد بولس باسيم: النائب الرسولى للاتين، وقد أخذت مداخلة من الترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس، والهوامش والحواشى من ترجمة أورشليم الفرنسية للكتاب المقدس، ط٣، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٤م.
- الكتاب المقدس على الموقع اللإلكتروني التالي:
- http://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/search.php

➢ **مراجع متنوعة:**

- **الأفغاني (جمال الدين الحسيني):**
- خاطرات جمال الدين الحسيني الأفغاني، آراء وأفكار، تقرير: محمد باشا المخزومي، إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو شاهي، ط١، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢م.
- **إيجلتون (تيري):**
- الإرهاب المقدس، ترجمة أسامة أسبر، ط١، دمشق: بدايات للطباعة والنشر، ٢٠٠٧م.
- **بايه (ألبير):**
- أخلاق الإنجيل، دراسة سوسيولوجية، ترجمة: د. عادل العوا، ط١، دمشق: دار الحصاد، دار كنعان، ١٩٩٧م.
- **البراك (د. عبد الرحمن بن ناصر):**

- مقال منشور بتاريخ ١٢/ ١١/١٤٣٧هـ. على الموقع التالي: http://almoslim.net/node/268708

- **بيكر (وليم):**

- المشترك أكثر مما تعتقد، ترجمة: محمد أبو الشرف، ربا أجداد، د.ط، دمشق: دار ندوة العلماء، مركز الدراسات الإسلامية، ٢٠٠٨م.

- **ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم):**

- قاعدة في المحبة، تحقيق: أبوعبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، ط١، بيروت: دار ابن حزم، المكتب الإسلامي، ١٩٩٩م، ١٤٢٠هـ.

- مجموع فتاوى ابن تيمية، د.ط، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

- مجموعة الفتاوى، تحقيق: عامر الجزار، أنور الباز، ط٢، المنصورة: دار الوفاء، ٢٠٠١م.

- معارج الوصول، د.ط، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، د.ت.

- **الجويني (إمام الحرمين: أبو المعالي عبد الملك).**

- شرح نظم الورقات، ط١، المنصورة: دار الغد الجديد، ٢٠١٣م.

- **حبش (د.محمد):**

- إخاء الأديان، ط١، بيروت: مؤمنون بلا حدود، ٢٠٢١م.

- **ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد):**

- المقدمة، ط٦، بيروت: دار القلم، ١٩٨٦.

- **دراز (محمد عبد الله):**

- الدين، د.ط، القاهرة: مؤسسة اقرأ، ٢١٤م.

- **ريان (محمد سعيد):**

- جدل الواقع العربي والصـــراع على الذات، ط١، القاهرة: مركز الحضـــارة العربية، ٢٠٠٩م.

- **سبينوزا:**

- رسالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم د. حسن حنفى، مراجعة د. فؤاد زكريا، ط٣، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١م.

- **صليبا (جميل):**

- المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب البناني، ١٩٨٢م.

- **العثيمين (محمد بن صالح):**

- الأصول من علم الأصول، د.ط، السعودية، القاهرة: دار ابن الجوزي 1430هـ.

- **علي جمعة:**

- المدخل، ط١، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.

- **الغزالي (أبو حامد):**

- إحياء علوم الدين، د.ط، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت. وكذا طبعة دار الفكر العربي، د.ت.

- المســتصــفى من علم الأصــول، تحقيق: د. ناجي الســويد، ط١، بيروت: المكتبة لعصرية، ٢٠٠٨م.

- **الفاتيكان (المجمع الفاتيكانى الثانى):**

- دســتور"الوحي الإلهى" تاريخ الإقرار ١٩٦٥/١١/١٨م تاريخ النشــر ١٩٦٥/١٢/٢٤ نقله عن اللاتينية إلى العربية الأب: يوسف الكلاس البولسي، ضمن كتاب (المجمع الفاتيكانى الثانى: دســاتير، قرارات، بيانات) الذى أشــرف على ترجمته وقام بالقســم الأكبر منها الأب: حنا الفاخورى، معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت، ط١، لبنان: المكتبة البولسية، ١٩٩٢م.

- **أبوفرحة (جمال الحسيني):**

- الإحسان إلى مخالف الإيمان، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية (العطاء والدعاء أنموذجا)، جامعة بنها: مجلة كلية الآداب، ٢٠١٥م.
- أدْورة عباد الآخر، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية (تحت الطبع).
- التحية والابتسام لمخالف الإيمان، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، جامعة السويس: مجلة كلية الآداب، ٢٠١٦م.
- التعاطف مع صاحب الدين المخالف، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، جامعة القاهرة: مجلة كلية دار العلوم،٢٠١٩م.
- التكفير والمصير، عند علماء المسلمين (تحت الطبع).
- حق الكافر في الظن العادل، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، جامعة القاهرة: مجلة وادي النيل، ٢٠١٨م.
- اللين مع مخالف الدين (الحلم والمسامحة نموذجا)، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، جامعة جنوب الوادي: مجلة كلية الآداب،٢٠١٧م.
- المحبة لمخالف الملة، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، جامعة قناة السويس: مجلة كلية الآداب،٢٠١٩م.
- مخالطة الفجار والكفار، قراءة في الكتب المقدسة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، جامعة القاهرة: مجلة وادي النيل، ٢٠١٦م.
- النبي الخاتم؛ هل وجد؟ ومن يكون؟، ط١، القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣م.

- **ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم):**

- أحكام أهل الذمة، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.

- **كارلسون (إنجمار):**

- الإسلام وأوروربا: تعايش أم مجابهة، ط١، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣م.

- **كانت (عم نوئيل):**

- مشروع للسلام الدائم، ترجمة: د. عثمان أمين، ط١، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.

- **كونفوشيوس:**

- محاورات كونفشيوس، ترجمة محسن سيد فرجاني، ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م.

- **المباركفورى (أبو العلا محمد بن عبد الرحمن):**

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

- **ابن منظور (محمد بن مُكَرَّم الأنصاري الرويفعي المصري):**

- لسان العرب، ط١، بيروت: دار صادر، د. ت.

- **موللر (هارالد):**

- تعايش الثقافات، مشروع مضاد لهنتنجتون، ترجمة إبراهيم أبو هشهش، ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٥م.

- **ابن النجار (أبو البقاء محمد بن أحمد):**

- شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط١، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ.

- **ابن الهمام (كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي):**

- فتح القدير، د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت.

- **هنتنجتون (صامويل).**

- صـــدام الحضـــارات، إعادة صـــنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشـــايب، تقديم د. صلاح قنصوة، ط٢، القاهرة: شركة سطور، ١٩٩٩م.

- **يوسف كرم.**

- تاريخ الفلسفة اليونانية، ط٣، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٣م

➢ **مراجع أجنبية:**

- Bucaille, Maurice, La Bible Le Coran et la science, © editions, Paris 1976.

- Kant, Religion Within the Limits of Reason Alone, Translated by Theodore M. Green and John R. Silber, Second Edition, New York.